

(٣)

## الأدب مقاومة

- أنا اخماتوفا
- هان سوين
- نادين جورديمر
- كلير تشريللي
- يوكو وأخواتها

## آنا اخماتوفا



آنا اخماتوفا

إحدى أبرز علامات عصرها  
في قرص الشعر. خصصت

مجلة الآداب السوفيتية عددًا خاصًا حول حياة  
الشاعرة وإبداعها وكيف تأثرت بالحركات  
السياسية المتعاقبة في الاتحاد السوفيتي وقد  
استطاعت بالقصائد التي أبدعتها أن تؤثر  
في وجدان أبناء القرن العشرين سواء داخل  
بلادها أم خارجها.

في مقدمة العدد الخاص من مجلة الآداب السوفيتية عن الشاعرة  
قدمت المجلة مختصرًا لسيرتها الذاتية بقلم آنا اخماتوفا نفسها في عام  
١٩٦٥، أي قبل وفاتها بأربعة أعوام تقريبًا. وفي هذه السيرة تقول:  
«ولدت في الثالث والعشرين من يونيو ١٨٨٩ في مدينة صغيرة قريبة  
من أوديسا، وفي ذلك العام كان أبي قد أُحيل إلى الاستبداد بعد عمل  
طويل في الهندسة البحرية مما دفعه يرحل بنا بعد عام من ميلادي  
إلى الشمال حيث عشنا هناك خمس سنوات. كانت أولى ذكرياتي  
وانطباعاتي عن هذا المكان الذي حللنا فيه أنه مليء بالخضرة ومليء

بالحدائق الرائعة. هناك كنا نعشق البحر ونذهب إليه نحن الأصدقاء القادمين من المدينة القديمة».

وقد تعلمت أنا اخماتوفا من القراءة الأولى من كتب ليو تولستوى المبسطة من أجل الأطفال وراحت أسرتها تعلمها اللغة الفرنسية، بالإضافة إلى الروسية؛ وذلك أسوة بأبناء الأسر الكبيرة في تلك الآونة. «قرضت القصيدة الأولى وأنا في الحادية عشرة وتأثرت بشكل واضح بكل من بوشكين وليرمنتوف، لكن الديوان الذى أثر كثيراً فى وجدانى هو مولد غلام من البلاط الملكى للشاعر درجانين، وكانت أمى تعرف أن أشعار هذا الديوان قد أصبحت أغنيات لقلبى».

فى عام ١٩٠٥ انفصل الأبوان، فرحلت الأم مع ابنتها إلى الجنوب، وعرفت الأسرة الفقر الشديد، لكن ذلك لم يمنع «آنا» من الاجتهاد فى الدراسة قدر الإمكان، وراحت تكتب الكثير من القطع المنظومة والثرية خاصة أن هذا العام قد شهد اضطرابات وقلقل فى روسيا. واختارت الأسرة أن ترسل ابنتها إلى مدينة كييف للدراسة فى مدرسة قواعد اللغة حيث تخرجت فى عام ١٩٠٧.

فى السنة نفسها التحقت «آنا اخماتوفا» بكلية الحقوق النسائية بكيف وراحت تدرس تاريخ القانون، وخاصة القانون اللاتينى. ولم تحس يوماً أن مواد القانون الجافة تتعارض مع رقة ووجدانية الشاعر، فراحت تنهل من دواوين الشعراء الذين تحبهم وراحت تقرض ما تجود به قريحتها من شعر.

فى عام ١٩١٠، تزوجت «آنا اخماتوفا» من نيكولاى ستينانوفتش، وذهبا إلى باريس لقضاء شهر العسل، وهناك التقت بالعديد من الأدباء الباريسيين. وما أن انتهت رحلة شهر العسل حتى قررت أن تستكمل حياتها العملية بالإضافة إلى حياتها الزوجية. فاستكملت دراسة التاريخ والآداب: «فى تلك الفترة كنت مستعدة لتقديم كتابى الأول».

كان هم «اخماتوفا» هو أن يكون شعرها رمزاً لحركة عصرها من الطليعة والتقدمية، فقد شهد الشعر التقليدى أزمة كبرى فى عام ١٩١٠، وراح بعض الشعراء يقصرون لقاءاتهم من أجل إعلان أول ورشة شعرية فى روسيا، وكانت «آنا اخماتوفا» أبرز أعضاء هذه الورشة وساعدتها سفرياتنا العديدة على الاحتكاك المباشر بحركة الشعر الأوروبى. ففى عام ١٩١٢ زارت باريس وجنوا وفينيسيا ومدن أوروبية عديدة، وتجولت فى المعارض التشكيلية الإيطالية، وفى هذا العام أيضاً صدر ديوان الشاعرة الأول تحت عنوان «أمسية»، كما رزقت بابنها الأول «ليو»، وعلى رغم أن الديوان الذى أصدرته الشاعرة لم يطبع منه سوى ثلاثمائة نسخة، إلا أن الانطباع العام عنه كان جيداً وقابله النقاد باستحسان بالغ.

صدر الديوان الثانى للشاعرة «آنا اخماتوفا» فى عام ١٩١٤ تحت عنوان «زهريّة»، وكانت قد اختارت مدينة «سان بطرسبرج» مكاناً للإقامة مع أسرتها، ومع ذلك كانت تذهب إلى الريف فى كل صيف من أجل البقاء لأيام طويلة وسط الحقول الخضراء.

تقول «آنا اخماتوفا» إن النقاد الذين استحسنا كتابيها الأولين كانوا

ظالمين فيما يتعلق بكتابها الثالث «السرب الأبيض» الذي صدر عام ١٩١٧. وقد جر عليها هذا الكتاب العديد من المشاكل، فقد منع بيعه في موسكو، وكان على الشاعرة أن تتعامل بحرص مع السلطات الجديدة التي جاءت عقب قيام الثورة البلشفية، حيث اختارت «آنا اخماتوفا» أن تعمل كأمينة مكتبة في أحد المعاهد الزراعية، وفي عام ١٩٢١ صدر لها كتابان جديدان هما «لسان الحمل» و «عام الغد».

«منذ بداية العشرينيات بدأت دراسة علوم الهندسة المعمارية في سان بطرسبرج القديمة.. ورحلت أدرس حياة بوشكين، وقد كانت نتيجة دراستي لبوشكين أن أبدعت ثلاثة كتب منها «صيف الحجر» وطبعت جميعها.

وفي تلك السنوات دفعت «اخماتوفا» ثمن الثورة غالياً، فقد أهدمت السلطات زوجها الشاعر «جومسليف»، ونفى ابنها الوحيد «ليو» سنوات طويلة في سيبيريا، كما مات صديقها الشاعر الكبير «مندلشتام» في معسكرات الاعتقال في سيبيريا. وقد دفعت هذه الظروف الشاعرة أن تكتب العديد من القصائد الهجائية للديكتاتور ستالين كان يتم تداولها في سرية شديدة.

على المستوى العام توقفت الشاعرة عن الإبداع في الفترة بين عامي ١٩٢٥ و ١٩٤١، إلا أنها كانت تبعد من وقت إلى آخر إحدى تلك القصائد الهجائية ضد ستالين وحكومته. وعندما اندلعت الحرب العالمية الثانية عاصرت حصار مدينتها سان بطرسبرج التي أصبح اسمها ليننجراد.

وراحت ترقب انحسار القوات الألمانية عنها، وأحست أن الوطن أعلى من الديكتاتور الذى يحكمه، فجاءت قصائدها ذات لون مختلف تماماً، وعقب انتهاء الاحتلال الألمانى للمدينة رحلت الشاعرة إلى موسكو.

«اكتشفت آنذاك قيمة النوع الإنسانى»، «بدأت أنظر إلى الحياة بشكل مختلف تماماً». كانت قصائد الشاعرة تداع يومياً عبر الإذاعة وتطبع بمئات الألوف من النسخ، ومن هذه القصائد:

«عرفت كيف تذبل الوجوه.

وكيف يحدق الخوف من تحت الأهداب المسبلة.

وكيف يندمج الألم أسفل الجبهات.

صفحات قاسية بحروف مسمارية مفضضة على حين غرة.

كيف تتحجر الابتسامة فوق شفاة لدنة.

ويرتجف الخوف فى ضحكة يابسة مبتسرة.

أنا لا أصلى من أجلى فقط.

بل من أجل من كانوا معى هناك فى برد ذئبى وسيفى الملتهب.

تحت جدار أحمر أصابه العصى.

وقد ارتبطت «أنا اخماتوفا» بمدينتها فلم تفارقها إلا قليلاً، فكلمات

ذهبت عنها بعيداً عادت إليها مشتاقاً يدلؤها الحنين والوجدان،

«صدمتنى مدينتى فرحت أكتب عنها مقالات نثرية نشرتها فى كتابى

«ثلاث شجرات من الليل» و«مباراة الموت».

اهتمت «أنا اخماتوفا» بعد ذلك بمسألة ترجمة الأدب بين اللغات،

وبعد أن انتهت الحرب، راحت تترجم العديد من الروايات والآداب الأخرى خاصة الفرنسية إلى اللغة الروسية. ولم تتوقف أعمال الترجمة حتى وافقتها المنية في أواخر الستينيات، وقد أبعدها الترجمة كثيراً عن قرض الشعر إلا أنها في عام ١٩٦٢ نشرت ديوانها «أشعار بلا بطل» وهو عبارة عن قصائد كتبها طوال ربع قرن من الزمان.

وفي السيرة الذاتية المختصرة التي كتبها أنا اخماتوفا عن نفسها في عام ١٩٦٥ أكدت أنها لم تتوقف أبداً عن قرض الشعر.

«لقد كتبت الشعر حتى أجعل من حياتي إيقاعاً مثيراً وأصبح إحدى بطلات التاريخ».

وترى الشاعرة في قصيدتها عن الشاعر أن البعض يحب الحياة، فيروح يعزف بأذنيه أو عينيه. والشاعر يعزف بوجوده حتى يمكنه الطيران من الأرض إلى السماء، يرى الأشياء بعينيه هو لأنه صادق. ويهمننا أن نترجم جزءاً آخر من قصيدة من أواخر الأشعار التي قرضتها «أنا اخماتوفا»:

أحدثك من تحت الجدران المهدومة

من أسفل الصرخة المتوحشة

من تحت قيمة الإنسان وخلاياه

عندما كنت أحترق على وجه السرعة.

الجدير بالذكر أن الشاعرة أصبحت وحيًا للعديد من الفنانين التشكيليين في الاتحاد السوفيتي سابقاً، فراحوا يرسمون وجهها الحزين، كما أصبحت «أنا اخماتوفا» مصدر إلهام للفنان التشكيلي

المعروف «موديليانى» الذى رسمها فى لوحة مشهورة فى العام ١٩١١ ،  
كما رسمها، فافان اسحاق فى لوحة انطباعية عام ١٩١٤ ، ورسمها  
نيكولاى تيرسا فى أكثر من لوحة فى أواخر العشرينيات.

## هان سوين



يمكن أن نرصد حياة كاتب من بلد  
دون أن نربط هذا الكاتب بحركة  
الأدب في بلاده، وعليه فلا يمكن أن نتحدث  
عن الكاتبة الصينية «هان سوين» دون أن  
نلقى الضوء على الحركة الأدبية الحديثة  
في الصين.

ولأن مراجعنا في المعرفة بالسيدة «سوين»

مكتوبة باللغة الفرنسية، فسوف نحاول إلقاء الأضواء على الأدب  
الصيني المعاصر من خلال الروايات المترجمة إلى اللغة الفرنسية في  
العقدين الماضيين. قد تكون مثل هذه الكتب عنواناً للثقافة في الصين،  
وقد تمثل عينة عشوائية للإبداع الأدبي هناك.

شهدت العاصمة الفرنسية اهتماماً بالثقافة الصينية، خاصة بعد  
اندلاع ثورة الشباب الأخيرة التي قابلتها السلطات بالعنف الشديد  
وربطت الأوساط الثقافية في العالم بين ما فعله الشباب وبين الثقافات  
التي تعرفوا عليها. كما شهدت العاصمة الفرنسية في تلك الآونة أيضاً  
حركة واسعة في ترجمة الآداب الصينية الحديثة إلى اللغة الفرنسية.  
وهذه الكتب التي ترجمت لم تقتصر على فن دون آخر، فهناك ترجمات

للمرواية والشعر والمسرح والنقد الأدبي فضلاً عن انفتاح سينمائي عرف النجاح فى مهرجانات السينما.

تقول مجلة «الاكسبريس» الفرنسية إنه فى الفترة من نوفمبر ١٩٧٨ إلى العام ١٩٨٥ استيقظ الشعب الصينى على زهرة تفوح منها رائحة الديمقراطية. وحول هذه المرحلة الانتقالية فى تاريخ الشعب الأصفر ظهر كتابان أولهما «عش العنديل لم يصنع ربيع بكين» الذى قدمه الكاتب «هولنج سكان»، وهو مدرس بجامعة الصين الشعبية فى أوروبا منذ فترة طويلة، ثم عاد إلى هونج كونج واستقر بها. أما الكتاب الثانى فهو «ربيع بكين» الذى قدمه الكاتب الفرنسى فيكتور سيدان. وقد ركز الكتابان على المرحلة الانتقالية التى تمر بها البلاد بعد وفاة «ماوتسى تونج»، وفيهما اتفق الكاتبان على المعالم الجديدة لهذه المرحلة: «تستلزم الديمقراطية خطأ من التوازن الذى يعبر تاريخ الصين الحديثة والثورية. قام «شيانج كاي شيك» بتجميع تحالف كل القوى الحيوية فى الصين ورفض الديمقراطية. أما «ماو» فقد سعى لكسبهم وهو يعدهم أن يمارس الديمقراطية. فالديمقراطية التى يتحدث عنها ليست الأفضل، هناك جيل كامل عليه أن يصنع ثورة ثقافية تختلف».

ولم يكن أى من الكاتبين يعرف أن أبناء الجيل الجديد لا يمكنه أن يصنع ربيعاً جديداً فى بكين. حيث قوبلت أول محاولة للتطور بكبت شديد وعنف ودموية بشكل لم يصدقه المراقبون فى العالم.

ومن بين الكتب المهمة التى صدرت فى الساحة الأدبية الفرنسية

«حلم فى الراية الحمراء» لكاد اكسوكين الذى يتناول حياة وموت وريث لإحدى الأسر الثرية، فهذا الرجل «باديرا» ولد وفى فمه ملقعة من الذهب، باركته سماء بوذا. وهذا الفتى يحلم بأن ينام فى أرض واسعة تعلوها العديد من الرايات يتمنى أن تعود الثقافة الصينية فوق ثقافات أخرى. إنه حلم مضاد لما حلمه يوماً الأمير بوذا قبل أن يذوب فى الترفانا.. أو لعله التنبؤ بغزو «ياجوج ومأجوج» لأقطاب الكرة الأرضية.

ظل أشهر الأسماء فى الصين الآن هو الكاتب «باركين» (١٩٠٠-٢٠٠٥) حيث كان مرشحاً دائماً للحصول على جائزة نوبل. وقد ترجمت له إلى العربية روايته الضخمة «أسرة». وفى أدبه يهتم بوصف معاناة رجال الفكر الصينى إبان الثورة الثقافية «كتابة هذه الرواية تثير العذاب والمعاناة لأننى ربطتها بالأحداث التى تمسنى عن قرب».

ومن أهم رواياته «الليلة الجليدية» و «العيون الساحرة»، وقد شغل منصب رئيس اتحاد الكتاب فى الصين الشعبية، ويرأس تحرير جريدة «واجة نجباو» التى تصدر فى هونج كونج. وقد اضطلع أكثر من أحد عشر عاماً (١٩٦٦-١٩٧٧) حين اتهم أن أعماله تناصر الإقطاعية.

أما «هان سوين» فهى الكاتبة الصينية الأكثر توزيعاً وشهرة فى العالم طوال النصف الثانى من القرن العشرين. كما أنها الأكثر ارتباطاً بقضايا العالم الثالث، وهى تعكس الوجه الصادق للصين المعاصرة، تعيش وهى تعمل بين بلادها وبين أوروبا. ويبدو أن «هان» تكرر نفس المسألة المعروفة من أن الآداب فى العالم الثالث لا تجد لها منفذاً إلا من

خلال كاتب غربى عاش فى البلاد، أو أن يعيش كاتب العالم الثالث فى بلاد الغرب؛ فبعد السنوات التى عاشتها «بيرل بك» فى الصين وعبرت عنها، اعتبرنا أن هذه الكاتبة قد أجادت التعبير عن واقع بلاد المليار نسمة. أما «سومست موم» فقد كتب العديد من رواياته عن فترة عاشها فى بلاد شرق آسيا. وفى هذه الروايات كانت الأرض صينية. والأبطال أوروبيين، أما «لوسيان بودار» فهو كاتب فرنسى من أم صينية، وقد كتب عن أمه «آن مارى» رواية بنفس العنوان نالت جائزة جونكور عام ١٩٨١. وقد نالت «مارجريت دوراس» نفس الجائزة عام ١٩٨٤ عن روايتها «العاشق» التى تدور حول علاقة حب بين صبية فرنسية وشاب صينى إبان فترة الاحتلال الفرنسى للصين بين الحربين العالميتين.

وهاهى ذى «هان سوين» تؤكد نفس المقولة. وكان يمكننا أن نعتبرها كاتبة أوروبية جاءت من الصين لولا التصاقها الشديد ببلادها وتاريخها، وبكتابة العديد من الروايات والكتب السياسية حول هذه البلاد. وتحدث «هان سوين» المولودة عام ١٩٢٠؛ «أبى صينى وأبى بلجيكية، إذن فأنا أورو أسيوية. عشت فى أوروبا وأمريكا مثلما عشت فى الصين، أنا امرأة من العالمين، وأعتقد أننى وضعت، بصفة خاصة، فى مكان جيد كى أقدم لكل طرف جوانب الطرف الآخر، وهذا أمر ضرورى». «وهذا الشئ أكثر ضرورة لأوروبا منه فى الصين، فلأن الصين شئ مهم فمن الأحرى أن نفهم الثورة الصينية، وأنتم يا أبناء الغرب قد يبدو هذا الأمر بسيطاً لأنكم ترون دائماً قصصاً غبية».

وتقول «هان سوين» فى حديث أجرته معها مجلة «مارى فرانس»: «لم أقل قط إن الصين جنوب، ولم أحاول أن أبين أنها عالم راثع، لكن على كل الناس أن يفعلوا ما فعلته.. لا.. لا.. لم أقل أبدًا إن الثورة الصينية بلا أخطاء أو نقائص. لكننى أقول إن هناك شيئًا عظيمًا فيها. فهى تجربة عالمية يحتذى بها، وقبل كل شىء فإننا نعرف أن الثورة الفرنسية كان بها بعض الإرهاب والسلبيات العظيمة، لكننى أحاول أن أطرح هذه المزاعم الفردية جانبًا أقول عندما أقدم كتبى: هذه هى الصين».

قضت «هان سوين» الفترة الأولى من حياتها فى بلادها داخل أسرة تنتمى إلى طبقة الأثرياء. ذلك قبل أن يأتى البلاد «صن يات صن»، ثم «ماوتسى تونج»، شهدت فترة الانتقال الرهيبة التى مرت بها بلادها فتشعبت بمشاكلها ومعاناتها، كما شهدت أيضًا موت ماوتسى تونج والانفتاح الصينى اللامحدود على العالم.

وتقول الكاتبة فى حديث لمجلة «بارى ماتش»: «لم أكن شيوعية يومًا ما، ولكننى انتميت إلى الفقراء فى تلك السنوات، لم أنضم إلى الحزب الشيوعى ولا إلى أى حزب آخر. كنت مستقلة. أنا صينية. تمتد جذور أسرتى إلى ٨٠٠ عام، أحب بلدى على رغم كل شىء وعلى رغم كل الطغاة. إنها تقاليدنا أن نحب بلادنا ونخدمها».

بدأت «هان سوين» حياتها العملية كطبيبة بين هونج كونج والصين، حيث حصلت على شهادة كلية الطب عقب نهاية الحرب العالمية الثانية، وتزوجت من دبلوماسى صينى يدعى «بو».

وتقول «هان سوين» إن زوجها كان يسمى دائماً إلى إنزالها وإحانتها، وكان يتعمد أن يجعل جنوده يضربونها أمام عينيه إمعاناً في إنزالها. وبعد أن حصلت على الطلاق من زوجها رافقت ابنتها التي تبنتها إلى مدينة هونج كونج حيث عملت طبيبة في أحد المستشفيات ونجحت في ممارسة عملها.

وفي هذه الفترة التقت بمراسل حربى بريطانى ارتبطت به عاطفياً بشكل ملاً عليها وجدانها، إلا أن المراسل لا يلبث أن يموت فى الحرب الكورية الأمريكية. وراحت «هان سوين» تكتب قصة حبهما بصدق شديد وبنفس أسماء أبطالها. وسرعان ما ذاعت شهرة هذه الرواية، لدرجة أن السينما الأمريكية أنتجت هذه الرواية فى فيلم رومانسى مشهور تحت اسم «الحب شىء رائع» قام ببطولته ويليام هولدن وجينفر جونز عام ١٩٥٥.

وهروباً من الآلام التى أصابتها عقب مصرع حبيبها، راحت هان سوين تغرق فى العمل الخاص والعام. فى الصباح تمارس الأعمال الخيرية فى المستشفى الذى تعمل به، وفى المساء تجلس أمام آلتها الكاتبة تسطر رواية جديدة عن حبها الضائع. وقد شاركت «هان» فى تلك الفترة فى إنشاء الجامعة الصينية القديمة كى تضمها إلى متحف كوالا لامبور، وفى تنظيم إقامة المعارض، فقامت بإنشاء العديد من العيادات. ونظمت مؤتمراً حول رياضة اليوجا. لم تكن تكف عن السفر طيلة العام من هونج كونج إلى سنغافورة وماليزيا والهند، حيث تزوجت

من هناك للمرة الثانية «أحب الهند كثيرًا، عشت فيها أكثر من عشر سنوات، وتباحثت مع الحكومة الهندية في مشكلة الحدود مع الصين، وفكرت أن هذا العائق سوف يحل بأى صورة ممكنة». كما تقول «لم أقل في تلك الفترة للهنود افعلوا مثل الصينيين، ولكننى أدركت أنهم يؤمنون بالأسلوب الصينى لأن للبلدين مشكلتهما هى زيادة النسل. وتنظيم الأسرة. ولا تعرف ماذا يحدث عندما يصل رجال التخطيط إلى إحدى القرى الهندية، إنهم يقبضون على كل الرجال الذين تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والستين ويقومون بتعقيمهم دون مشورتهم». جاءت الرواية الأولى للكاتبة لتحقيق لها الشهرة فى كل الآفاق، مما دفعها إلى تقديم ثلاثة كتب أخرى حول سيرتها الذاتية، مثل «زهرة ميتة» و«الشجرة الجريحة» و«صيف بلا طيور»، وبعد أن ذاعت شهرتها فى الآفاق راحت الدول الغربية والشرقية تدعوها إلى زيارتها وإلقاء محاضرات عن العالم الثالث. ومن هذه الدول السويد وفرنسا. وفى عام ١٩٥٧ دعاها المؤتمر الأفروآسيوى بالقاهرة لحضور جلساته. كما حضرت أيضًا مؤتمرات حول الطب فى العالم الثالث ببرلين الغربية، ودون أن يدعوها أحد قامت بنفسها باستقبال «نهرو» فى ليلة اندلاع الحرب بين كل من الهند والصين. وقد زارت «هان سوين» مصر فى أوائل الستينيات من القرن الماضى وكتبت مقالًا حول منطقة النوبة انتقدت فيه بعض مظاهر الحياة فى تلك المنطقة. ثم قامت بزيارة مماثلة لماليزيا إبّان الاحتلال اليابانى وانتقدت العديد من الأوضاع هناك أيضًا.

ترجمت مجموعة من الروايات التي كتبتها هان سوين إلى العديد من لغات العالم، لدرجة أنها كتبت باللغة الإنجليزية مباشرة بعض الكتب، كي تكون أقرب إلى قلب القارئ الأمريكي والأوروبي. ومن بين رواياتها الأخرى المشهورة «حب الشقاء» و«أنت ظلي» و«الوجوه الأربعة» و«هناك بابان لمنزلي» و«حتى الصباح».

وتدور روايتها «حتى الصباح» حول علاقة حب مستحيلة بين امرأة أمريكية ورجل من الصين. ومن المعروف أن روايتها الأولى «الحب شئ رائع» كانت عن علاقة حب مشابهة بين امرأة صينية ورجل من إنجلترا. وقد وقف القدر ضد هذا الحب حين مات الحبيب في الحرب، ومثلما دارت هذه الرواية إبان الحرب، فإن «حتى الصباح» تدور بين عامي ١٩٤٤ و١٩٧٤. تبدأ أحداثها حين تصل بعثة أمريكية إلى الصين، ومن بين أفراد هذه البعثة فتاة جميلة تدعى «ستيغاني»، مولودة في تكساس بلاد رعاة الأبقار، حيث المغامرة. لذا قبلت هذه الرحلة، وفي الصين تلتقي بأحد ضباط الطاغية «شيانج كاي شيك» تراه يخفق امرأة ثم يركلها وكانت المأساة أن المرأة حامل.

وفي الحال تدخلت ستيغاني وحاولت الدفاع عن المرأة، فما كان من الضابط إلا أن ألقى بنفسه عليها وعض ذراعيها وصفعها ولكمها. وقد أدت الضربات إلى دخولها المستشفى، حيث قابلت جان يونج الطبيب الصيني الذي يحب بلاده ويريد أن تقام صين حرة. وقد تزامنت بين الرجل والمرأة علاقة حب مستحيلة، فهي علاقة حب بين حضارتين.

فالناس في الصين لا يقبلون مثل هذه العلاقات بسهولة. فقد كان العاشقان يسيران في الشارع ويمكنهما أن يتبادلا القبلات، لكن هذا موقف مشين. لذا انتهى الأمر بالزواج.

وعقب الزواج أصيبت «ستيغاني» بالمalaria والالتهاب الرئوي، فعادت إلى بلادها تعنى بنفسها. وفي تلك الفترة كان الأمريكيون يعدون أنفسهم لإلقاء قنبلة فوق هيروشيما، وقد شهدت العين أحداثاً معقدة في تلك الآونة. فهي تساعد الطاغية «كاي شيك»، وتعطيه مليارات الدولارات كي يجارب الشيوعيين، أما ستيغاني فقد عادت مرة أخرى إلى الصين كي تلد ابناً لزوجها.

وغير خفى أن هان سوين، استمدت الهيكل العام لهذه الرواية من وقائع تجربتها الشخصية. «ولدت في الصين» في محطة سكة حديد. ففي عام ١٩٥٣ ذهب أبى إلى بلجيكا، وقابل أمى وتزوجها، مما شكل فضيحة عائلية في الصين، فأسى كانت في منتهى الشجاعة ولم يستطع أحد أن يمنعها من الزواج.

وتقول «هان سوين»: «عندما يحدثوننى عن الحرية أقول لا تفكر فيها وأنت جالس في منزل فخم بفرنسا، وأمامك أشهى المأكولات. الحرية بالنسبة لك أشبه بالكافيار شيء لا لزوم له. أما الحديث حول حرية ناس ليست لهم حرية الطعام والزواج والمعيشة فيختلف، لأنه بدءاً من الآن سوف تتجه جميعاً نحو الحرية».

«هان سوين» مؤمنة إلى حد بعيد بحركة المرأة في بلادها، وهي تتدافع عن هذه الحركة، فالمرأة في الصين هي التي تعمل في الحقول، وفي المصانع ترتدى الملابس الخشنة مثل الرجل. وقد شاركت «هان» نفسها في مثل هذه الأعمال داخل وخارج بلادها. وتقول عن هذه التجربة «حرية المرأة في الصين ليست مثيلتها في بلاد الغرب، قائمة على كراهية الرجل. ليس من العدل أن تكره الرجل وأن تقول: هنا نساء تواجه الرجال. نحن نؤمن أنه على الرجال والنساء أن يعملوا معاً من أجل حريتهم. وهذا شيء يحدث في الصين، من أجل سنوات قادمة أفضل».

وتقول: «عرفت ولست وضعية المرأة في الصين القديمة، أنا امرأة مطحونة وأتذكر أنني قلت هذا في باريس منذ اثني عشر عاماً. فقلت: أنا امرأة مطحونة، حينذاك انفجرت في كل أنحاء الصالة صرخات: ونحن أيضاً.. ونحن أيضاً».

«حرية المرأة في الصين هي جزء من التيار المتدفق لكل العالم، لكن للمرأة أسلوبها الصيني الذي تعيش به، نحن لا نعاني من مشاكل حول الجنس، ونعتقد أن الحرية الجنسية يمكن أن تصبح عبودية أخرى». تعكس «هاى سوين» صورة المرأة التي لا تكف عن العطاء في قضية تؤمن بها. فعلى رغم أنها في التسعين فإنها لا تزال تكتب حتى ساعة متأخرة من الليل. أما النهار فهو ميدان رائع للعمل.

## نادين جورديمر



**يمكن** رصد مجموعة من الظواهر العامة التي ترتبط بحصول الكاتبة الأفريكانية «نادين جورديمر» على جائزة نوبل فى الآداب لعام ١٩٩١. أهم هذه الظواهر هى:

□ عادت الجائزة مرة أخرى إلى الرواية. فمن المعروف أن أكاديمية ستوكهولم لم تمنح

الشعراء والروائيين الجائزة بالتبادل، ففى عام تمنح لكاتب روائى عن إحدى رواياته فضلاً عن مجمل إبداعه. وفى العام التالى يحصل عليها شاعر عن أحد دواوينه، وبذلك فإن الجائزة تهمل تمامًا كلا من الإبداع المسرحى المكتوب، كما لا تلتفت بالمرّة إلى القصة القصيرة. وعلى سبيل المثال فإن «وول سوينكا» الذى حصل على الجائزة عام ١٩٨٦ قد نالها كشاعر وليس كروائى، على رغم أن شهرته ناعت ككاتب مسرحى.

وليس شرطًا دقيقًا أن تمنح الجائزة بالتبادل بين الشعراء والروائيين. ففى عامى ١٩٨٦، ١٩٨٧ منحت لشاعرين هما «سوينكا» و«جوزيف برودسكى». وفى عامى ١٩٨٨ و١٩٨٩ منحت لروائيين وهما

تجيب محفوظ وخوثيه ثيلا وفي العقدين الماضيين بدأت الموازين تعادل  
فمنحت إلى روائييين مثل جونتر جراس، ولوكليزيو، وهيرتا مولر،  
كما منحت لمسرحيين مثل داريو فو، وهارولد بستر ومؤخرا لماريو  
بارجاس يوسا.

□ اتسمت الجائزة في بعض الأعوام بالاعتدال وراحت لأصحابها  
الذين ظلوا ينتظرونها طويلاً. فبعد أن تجاهلت كل من أوكتافيو باث  
وجونتر جراس وجورديمر الذين ظلا في قائمة الترشيحات طويلاً، وبعد  
أن منحت لأدباء بغمورين بحجة أن الشهرة أفضل من الجائزة نثما  
حدث مع التشيكي «بارولاف سيفرت» والبولندي «شيزلاف ميلوش»  
وأيضاً الأمريكي «جوزيف برودسكى» ها هي ذى تمنح لكاتبة معروفة  
على المستوى العالمى لدرجة أن اللوم كان يوجه للأكاديمية دائماً بدعشة  
عن سبب تجاهل كاتبة مثل «نادين جورديمر» طوال هذه السنوات.  
حيث ظهر اسمها كمرشحة لأول مرة عام ١٩٧٩ وظلت تنتظر طويلاً.  
إنن، يبدو أن الأكاديمية قد تخلت - ربما مؤقتاً - عن منظورها  
القديم، عندما أحست أن منح الجائزة لكاتب مغمور يقلل كثيراً من  
أهمية الجائزة نفسها. فمن يذكر الآن أسماء عديدة حصلت على الجائزة  
فى السنوات العشرين الأخيرة مثل المجرى ايميرى كيرتشى. يبدو أنها  
اقتنعت أن شهرة الكاتب ليست أسراً كاذباً، بل جاءت نتيجة التحامه  
مع قراءه وكتابته لما يمس أشياء فى وجدانهم، وقد كانت «نادين  
جورديمر» بالفعل واحدة من هؤلاء.

□ عادت الجائزة مرة أخرى للأدب المكتوب باللغة الانجليزية. فعلى رغم أن «نادين جورديمر» من طبقة الأفريكان الذين جاءوا من هولندا على مدى القرون الخمسة الأخيرة إلى جنوب إفريقيا لنهب ثرواتها وامتلاكها، ثم إعلان أنفسهم سادة على أبناء الشعب الأصليين، على رغم كل ذلك، إلا أنها تكتب باللغة الإنجليزية. وعليه فإن الجائزة قد منحت منذ عام ١٩٨٠ وحتى عام ٢٠١٠ إلى تسعة كتاب يكتبون بالإنجليزية مباشرة. ومنهم «شيزلاف ميلوش» - البولندي الذي يدرس اللغة الإنجليزية في الولايات المتحدة - وإلياس كانيقي ثم ويليام جولدنج وويل سوينكا ثم يوسف برووسكي ونادين جورديمر» وغيرهم.

الجائزة ذهبت إلى من يستحقها، ليس فقط لأننا أمام كاتبة متميزة بل لأننا أمام كاتبة تعيش داخل أتون النار منذ أن بدأت علاقتها بالإبداع وحتى الآن. سنوات طويلة تصدت فيها بقلمها لكل ما يدور في جنوب أفريقيا من قوانين تعسف عنصري. فبناك نظام الأبارتايد حيث يعيش البيض في أماكن بعيدة تمامًا عن الزنوج. وهو نظام ظل غير قائم إلا في جنوب أفريقيا حتى عام ١٩٩٦. والرجل الأسود هنا يعيش في أسوأ حالات المعيشة وممنوع عليه ارتياد الأماكن التي يرتادها الرجل الأبيض، سواء الحدائق أو دور السينما أو المدارس وما إلى ذلك. والعلاقة بين الزنجي والأبيض هي علاقة خادم ببيده بعد أن كانت علاقة عبد بسيد لسنوات طويلة. هذا الخادم كان عليه أن يعمل بسخرة في الناجم

التي يمتلكها الأبيض وفي مزارعه، وهو يعيش في أكواخ ضيقة مع أسرته الكبيرة. وكثيراً ما تجبره ظروف عمله على أن يترك أسرته شهوراً طويلة كي يعمل عند الأبيض من أجل توفير ما يقات به ويرسل بقاياها إلى أسرته.

والبيض في هذه البلاد يسكنون بالأفريكان Afrikaner كنوع من التمييز عن الأفارقة بشكل عام وعن الزنوج في داخل جنوب أفريقيا بشكل خاص. وفي جنوب أفريقيا يوجد الأفريكانى القادم من هولندا ويمثلون قرابة ٢٢٪ من السكان، والزنوج ويمثلون قرابة ٦٠٪، أما الملونون فهم يمثلون باقى السكان.

وللأفريكان لغة خاصة بهم يتكلمونها ويكتبون بها، هي اللغة الثانية في البلاد. وقد سعى الأفريكانيون إلى صناعة ثقافة خاصة بهم. وتنتسب «نادين جورديمر» إلى هذه الطبقة. فقد نزحت أسرتها من هولندا في منتصف القرن الثامن عشر وراحت تستولى على قطعة أرض ضخمة في منطقة تسمى في التاريخ الأفريقي «ترانسفال»، ما لبث أن تحولت إلى «سبرنجز». وهي منطقة غنية بالناجم الملية بالذهب وتحوطها أراض خصبة للزراعة. وتعتبر أسرة جورديمر من كبريات الأسر وأكثرها ثراء في جنوب أفريقيا.

وعلى رغم كل هذا الثراء الذى عاشت فيه نادين منذ طفولتها إلا أنها كانت من أوائل الكتّاب البيض، بل هى الأولى، التى وقفت ضد

التفرقة العنصرية مما سبب صدمة كبيرة فى أسرتها وأيضاً بين أبناء  
عشيرتها، واستطاعت أن تجذب إليها فيما بعد العديد من الأدباء  
الشبان، فى السبعينيات، ومن الأفريكان أيضاً الذين وقفوا يدافعون عن  
الزواج ويتعرضون لأبشع ما يمكن أن يتعرض له صاحب قلم. ومن أشهر  
هذه الأسماء هناك «أندريه برينك»، و «ج.م. كوتسيا» (نوبل ٢٠٠٣)،  
و«ويليام بلومر»، و«سارة جرتروود ميلينك».

وتجىء غرابة هذه الظاهرة أن البيض وجدوا أن عليهم أن يضعوا  
مصائرهم فى كلماتهم. وداخل أخبار أعلامهم على رغم أنهم يحصلون  
على كافة الامتيازات. الجدير بالذكر أن هناك الكثير من الكتاب الزوج  
الذين ظهروا فى الجيل الأسبق وراحوا يكتبون دفاعاً عن قضاياهم مثل  
«بيترا براهام»، و «كان ثيمبا»، و «بلوك موديسان»، وغيرهم. لكن  
على رغم أهميتهم فإن العالم نظر إليهم على أنهم يفعلون كل ما هو  
طبيعى، بل إن البعض تصور أن من أديهم ما هو دعائى. لكن أحداً  
لم ينظر قط إلى أدب البيض الذين يناصرون الزوج بهذا المنظر،  
خاصة أن أغلب الذين كتبوا لم يقدموا إحصاءات روائية عابرة، بمعنى  
أن كل منهم لم يكتب رواية أو مقال أقل حماسة، بل إن كل منهم  
ازداد حماسة مع كل رواية جديدة (راجع مقالنا فى مجلة الهلال عن  
أندريه برينك فى يوليو ١٩٨٢ ومقالنا عن الأدب الأبيض فى جنوب  
أفريقيا فى يوليو ١٩٨٤).

«نادين جورديمر» هي الكاتبة رقم (٧) التي تحصل على جائزة نوبل خلال ما يقارب التسعين عاماً وقد توزعت الجائزة على القارات الأربع، عدا الثقافة الأسيوية المغبونة بشكل واضح في تاريخ جائزة نوبل، فهناك السويدية «سلمى لاجيرلوف» عام ١٩٠٩ والأمريكيتان «بيرل بك» عام ١٩٣٨ وتوني موريسون عام ١٩٩٣. ومن الدانمارك نالتها «سيجيريد اندست» عام ١٩٢٨، ومن إيطاليا جراتسيا ديليدا عام ١٩٣٧، وفي انجلترا حصلت عليها «درويس ليسنج» عام ٢٠٠٧، وفي شيلي بأمريكا اللاتينية نالتها الشاعرة «جابريللا باسترال» عام ١٩٤٥. ومن بولندا فيسلافا شمبروسكا عام ١٩٩٦، ومن ألمانيا حصلت عليها «نيللي ساخس» عام ١٩٦٦، وهيرتامولر عام ٢٠٠٩، والنمساوية الفريدة بلينيك.

وإذا كانت لكل من هؤلاء الكاتبات مدرستها الأدبية وجيلها الذي تنتمي إليه، فإن الأدباء الأفارقة الأربعة الذين حصلوا على الجائزة يمثلون أقطاب مختلفة من ثقافة القارة. ففي الشمال نجيب محفوظ يمثل قمة الرواية العربية، وفي الغرب سوينكا يمثل الثقافة الأفريقية الناطقة بالإنجليزية. لكن ثقافة نادين جورديمر وكوتسيا تمثل أقلية صغيرة، لكن إبداعهما يعبر عن الأغلبية.

ولدت «نادين جورديمر» في سبرنجز عام ١٩٢٣ وعلى رغم شهرتها العريضة إلا أنها لم تنشر سوى عشر روايات ومجموعتين قصصيتين. من هذه الروايات «عالم الغرباء» و «ابنة برجر» و «ناس من جولاي»

و«صاحب الحيازة». أما مجموعتاها القصصيتين فهما «شيء ما هناك» و«رياضة الطبيعة». والجدير بالذكر أن السنوات العشرين الأخيرة قد شهدت لنادين نشاطاً أكثر كثافة من قبل.

وعلى رغم أن الكاتبة نالت قبل عام ١٩٧٤ أربع جوائز أدبية إلا أن أعمالها كانت قليلة للغاية. فقد حصلت على جائزة تمنحها دول الكومنولث لمن يمثل ثقافتها، وتسمى جائزة سميث. كما حصلت عام ١٩٧٤ على جائزة «بوكر» عن روايتها «صاحب الحيازة» ونالت جائزة ثالثة في عام ١٩٦٩ تسمى جائزة «برنجل».

عانت نادين جورديمر مثل كل الكتاب الأفريكان والزنوج الذين يناهضون التفرقة العنصرية. ومن ضمن هذه المعاناة أنه صدر أكثر من مرة حكماً بعدم مغادرتها منزلها لفترة طويلة والتفتيش الدائم لما تكتب ومتابعة آلتها الكاتبة. ولذا فإن نادين جورديمر لم تغادر بلادها مرة واحدة طوال حياتها. وعلى رغم أن كتبها كانت تتسلل خفية بين الناس وتعبّر الحدود كي تتم ترجمتها إلى لغات عديدة إلا أنها راحت تغير من أسلوب كتابتها فهي تدعى أنها لا تقترب قط من السياسة ولا من رجالها، وأن قصصها عن نساء يصادقن الأسر الزنجية ويدافعن عنها. كما أن مقالاتها الكثيرة التي كانت تكتبها أقرب إلى التحليلات الاجتماعية لما تشهده البلاد من عنف اندلع منذ عام ١٩٦٠ ولم تنطفئ جذوته حتى انقلبت الأحوال، بتولى نيلسون مانديلا حكم البلاد.

وسوف نحاول هنا أن نقرأ اثنتين من أهم رواياتها على الإطلاق وهما «ابنة برجرجر» ثم «ناس من جولاي».

ابنة برجرجر تدعى «روزا»، وهى مثل ابنة أى زعيم مات. تنظر إلى أبيها فى البداية على أساس أنه أب رقيق ورحيم ولطيف، فكل أب يحب أبناءه بنفس القدر، وكل ابنة تنظر إلى أبيها على أساس أنه أحسن الآباء جميعاً دون الاهتمام بمكانته الاجتماعية أو بدوره السياسى. روزا فتاة بيضاء مثل كل بطلات نادين جورديمر فى عمر الزهور، مجرد مراهقة صغيرة مشدوذة بجمالها الفتان، فأبوها جراح كبير يحظى باحترام الجميع. إلا أن السلطات تكتشف أن له دوراً فى مناهضة التفرقة العنصرية، فهو يعالج الزنوج مجاناً ويناصرهم، لذا يتم القبض عليه ويتم إيداعه السجن، وبعد عدة أسابيع يجىء نبأ وفاته.

و «برجرجر» فى منظور الناس رجل تقدمى يؤمن بالعدالة الاجتماعية. لذا أعلن حربه ضد التفرقة العنصرية. وعقب وفاة «ليونيل برجرجر»، نجد ابنته نفسها فى موقف لا تحسد عليه، فهى تختلف كثيراً عنه وتؤمن بأفكار غير أفكاره، فهى تعيش حياة رغدة. والفتيات مثلها يتحدثن عن أشياء تبدو لهن جميلة عن العطور الفواحة، والمساحيق التى تجعل الفتاة جذابة، وموضات الأزياء ذوات البريق الخاطف للأبصار. أما الرجال فيبدون بلا مشاكل يلعبون الجولف ويركبون الجياد ويعيشون فى الضياع الواسعة.

لكن بعد وفاة الأب تتغير الأمور، فالناس ينظرون إليها على أطلال شبح أبيها وأنه يقف خلفها دائماً مما يفقدها هويتها، وعلى رغم ذلك

فإنها تعلن أنها مختلفة كثيرًا عن أبيها، فهي لم تكن يومًا مناضلة سياسية ولا تحب أن تخرج من عالمها الوردى إلى السياسة ولا تنشد البطولة فهي ليست مصنوعة من أجلها. وإذا سألتها أحد عن أبيها ومنجزاته تتمتع في حسرة: «وماذا كتب.. لقد مات».

كل ما تحلم به روزا برجر أن تعيش تجربة عاطفية رقيقة مثل تلك التي عاشها أبوها مع أمها في أول حياتهما.

تقع «روزا» في حب شاب وسيم، لكنها سرعان ما تكتشف أنه كان صديقًا لأبيها ومؤمنًا بأفكاره، وعليها أن تقوم بممارسة اللعبة الحذرة كخطيبة لشاب مناضل ثوري. ما لبثت السلطات أن قبضت عليه وحبسته مثلما فعلت مع الأب ليونيل. وبحثًا عن وسيلة للتخلص من هذا التناقض الذي يجثم على صدرها، تكتب مجموعة من الرسائل لصديقها «كونراد» تحدثه فيها أنها تود أن تكون ذاتها وأن عليها أن تبحث عن حريتها الذاتية بعيدًا عن سيطرة شبح أبيها. لذا تقرر السفر إلى أوروبا.

وكما تحصل «روزا» على جواز سفر تقوم بتقديم تعهد ألا تقابل أثناء سفرها أيًا من الشخصيات السياسية، أو أن تقوم بأي نشاط سياسي محظور، ثم تتركب الطائرة وترحل إلى لندن. وفي لندن تلتقى بزميل طفولتها «بعمسى»، وهو زنجي يناضل ضد التفرقة العنصرية ويكافح ضد تعسف السلطات البيضاء، ويحدثها أن آلاف الزوج قد ماتوا دفاعًا عن هذه القضية. ولأنها ابنة الدكتور «برجر» فعليها أن تكون «شاهدًا»

على أبيها. يخبرها أنها لا تعرف قيمة أبيها الحقيقية، وأنها بهذه السلبية تبخسه حقه وقيمه التي لا يراها شيئاً سوى الاستمرار في المناقاة بأفكاره. ويطلب منها أن تكتب كتاباً عن أبيها، فلا أحد يمكنه أن يفعل ذلك بنفس المستوى الذي يمكنها به، كما يطلب منها أن تقوم بكتابة قصة حياته لإنتاجها في فيلم تليفزيوني.

وشيئاً فشيئاً تتحول «روزا برجر» إلى امرأة أخرى، تبدأ في فهم أعماقها الحقيقية. لذا فإنها عندما تعود إلى جنوب أفريقيا تكون قد أصبحت شخصية جديدة، تنظر إلى أبيها نظرة تختلف، وتختار أن تصبح بالفعل «ابنة برجر»، فتكون امتداداً له تستكمل مسيرته. ويرى الناقد الفرنسي في جريدة «كانزان ليتيرير» (٧-١١-١٩٨٠) أن اختيار اسم «روزا» مقصود تماماً. فإن حياة «روزا برجر» قريبة من تلك التي عاشتها المناضلة «روزا لوكسمبورج».

أما روايتها «ناس من جولاي» فهي تدور حول أسرة بيضاء تتكون من زوجين وثلاثة أبناء، يهربون من ثورة الزنوج ويقودهم في رحلة الهروب التي تبلغ ٦٠٠ كيلو متر إلى مدينة جولاي دليل زنجي. وفي الرحلة يشاهدون فظائع الثورة، وفظائع البيض ضد السود من أجل إخماد ثورتهم. وعندما يصلون إلى جولاي - وتعني يوليو - لا يجدونها قد تغيرت كثيراً كما كان يزعم البيض، بل هي مليئة بمظاهر التفرقة العنصرية.

وتتنمى الرواية إلى أدب الخيال السياسى، فأحداثها تدور فى المستقبل، حيث تتصور الكاتبة ثورة الزنوج الأخيرة من أجل التحرير. فالثورة شديدة الاشتعال والمدن تحترق والمطارات مغلقة، ولم يعد هناك طريق للهروب والإفلات. الزوجان هما «بامفورد ومورين سمالز»، وهما من أسرة نزحت من «يوهانسبرج». أما الدليل الزنجى فهو يعمل فى خدمتهم منذ خمسة عشر عامًا. وفى الرحلة تبدو مدى الحاجة إلى الإقامة فى مسكن أو لطعام نظيف ومياه نقية، ولأن «جولاي» يسكنها بعض من أقاربهم فإنهم اختاروا التوجه إليها. وعبر الإرهاق وحاجتهم إلى الراحة ورغبتهم فى الوصول يتحول الخادم إلى سيد للرحلة، كلمته هى السائدة والنافذة. ويدور صراع جديد بين الطرفين، فالأب «بامفورد» لا يريد أن تنقلب الأمور وتتغير الموازين. فعلى رغم أن الخادم يقوم بمهمته على أحسن وجه، مثل إعداد الشاى فى الصباح وتجهيز أماكن النوم فى المساء، إلا أن سلوكه العام يؤكد أنه السيد، حتى عندما ينزل الوفد إلى قرية صغيرة يسكنها الزنوج تحس الزوجة «مورين» أنها لا يمكنها أن تواكب مهارة النساء الزنوج فى الأعمال اليومية. وعبر الإذاعة تجيء الأنباء عن انتصار ثورة الزنوج الذين استولوا على ممتلكات البيض. وبالطبع فإنهم استولوا على بيتهم فى يوهانسبرج «إنهم يطلقون الرصاص فى الشوارع وأصبح الخطر يحوط أطفالهم، ومن الضرورى الدفاع عنهم لحمايتهم باسم العدل الذى ينادى به الرجل الأبيض فى مجتمع غير قابل للتصديق».

وهكذا، يتأكد للأسرة البيضاء أن أمان الرجل الأبيض قد أصبح شيئاً من الماضي، وأن الثورة قد غيرت وجه الحياة في جنوب إفريقيا. تلك كانت الرؤية التي صورتها الكاتبة في الرواية المنشورة عام ١٩٨١. ولا شك أن الثمانينيات قد انتهت وتحقق الكثير مما توقعته، لم يستول الزنوج قط على ممتلكات البيض، لكنهم عن طريق الديمقراطية صاورا حكاما وامتلكوا أراضيهم وقراهم بعد أن أعلنت السلطات عن تخليها عن قوانين العزل العنصري والأبارتايد. وهكذا تلاحمت أفكار الكاتبة مع بعض أغلبية الناس، فالحياة قد تغيرت كثيراً في جنوب إفريقيا، ويبدو أن أكاديمية ستوكهولم قد منحت الجائزة للكاتبة تعبيراً عن إعجابها برؤيتها وصدقها وتعويضاً لها عن سنوات المعاناة الشديدة التي أصبحت الآن من الماضي.

## كلير تشريللى



كانت

الكاتبة الفرنسية «كلير تشريللى» من القليلات اللائى تحدثن عن التمرد والثورة والنضال من خلال البحث عن عالم أفضل. ونساؤها الثلاث التى استعرضتهن رواياتها الثلاث هن صناع الثورة فى الأماكن التى يقمن، حيث يعشن فى عالم يملؤه الفقر والاستغلال لكنهن لا يعترفن بالأمر الواقع،

ولذا فإن النضال هو وسيلتهن للتعبير عن الرأى. كى يتوصلن فى عالم آخر ليس فيه ظلم أو اضطرابات.

نشرت كلير روايات قليلة طوال سيرتها الأدبية هى على التوالى: «أليز أو الحياة الحقيقية» عام ١٩٦٧ و«فيما يتعلق بكليما نص» عام ١٩٧٣، ثم «شجرة مسافرة» عام ١٩٧٨ و«زمن غير عاقل» ٢٠٠٣، و«مرض الكلب» ٢٠٠٧. ولأن أولى رواياتها تدور بين فتاة فرنسية وشاب جزائرى إبان حرب تحرير الجزائر فسوف نتناول هذه الرواية بشيء من التفصيل مع عرض موجز للروايتين الأخرتين سالفى الذكر. ولدت «كلير» فى الحادى عشر من يناير عام ١٩٣٤ بمدينة «بورجو»

بجنوب فرنسا، وقد اشترك أبوها في المقاومة الفرنسية المسلحة ضد الاحتلال النازي إبان الحرب العالمية الثانية، لكن الألمان أسروه عام ١٩٤١، وأعدم رمياً بالرصاص في العام التالي. وكان هذا الحادث سبباً في أن تتعلم كلير التمرد الذي تشربته من أبيها وهي لا تزال طفلة لم تعرف الكثير من الأسماء أو الأشياء. فأبوها رجل ثوري سوف تراه مجسداً في الرجال الثلاثة الذين صورتهم في أعمالها. وبعد أن مات أبوها ذهبت تعيش مع جدها في إقليم الباسك، ثم رحلت فيما بعد إلى أمها التي تولت رعايتها.

وفي وسط عالم فقير وأسرة متواضعة للغاية، استطاعت أن تنال قدرًا ضئيلاً من التعليم سمح لها باستكمال دراستها. ثم ما لبثت أن تركت التعليم لتتزوج وهي في الثانية عشرة من عمرها. وفي عام ١٩٥٣ حاولت نشر أولى رواياتها وهي في التاسعة عشرة. لكن الناشرين أعادوا الرواية إليها مرة أخرى، فالتجتهت إلى كتابة الشعر ونشرت بعضاً منه. وفي عام ١٩٦٠ رزقت بطفل صغير ثم انفصلت عن زوجها ورحلت إلى باريس لتعمل موظفة في فرع شركة ستروين للسيارات، وتتفرغ تمامًا لتربية ابنتها مثلما ستفعل بطلات رواياتها فيما بعد. وتقضى معظم أوقاتها تقرأ حتى تتمخض هذه القراءات والمواقف عن أولى رواياتها «أليز أو الحياة الحقيقية» التي نشرتها عام ١٩٦٧ لتعبر من خلال أليز عن تجربتها الشخصية إزاء الفقر الذي عاشت ترتع فيه منذ سنوات

طويلة، وهى الرواية الوحيدة التى ترجمت للكاتبه إلى اللغة العربية، حيث نشرت فى روايات الهلال عام ١٩٩٠.

تدور أحداث هذه الرواية فى نفس الأماكن التى عاشت فيها كلير وهما مدينتا بوردو وباريس. أما الوسط فهو العالم الذى عانت منه طيلة حياتها، حيث الفقراء والعمال الباريسيون المطحونون. فاليز تعيش فى أسرة فقيرة تتكون من أخيها لوسيان وجدتها.. يعيش الثلاثة فى فقر مدقع، لكن أليز تحلم وتدرس، وهذه الأحلام وتلك الدراسة كفيلا أن يجعلوها تنتظر «حياة حقيقية».

' أما الأخ لوسيان فقد فشل فى عدة أشياء متلاحقة، مثل الدراسة وبعض العلاقات العاطفية. يلتقى يوماً بمنرى أحد أصدقائه القدامى فى المدرسة، وكان يدرس القانون ويسمى نفسه مناظلاً، لأنه يستعد للاشتراك فى ثورة الجزائر إلى جانب العرب.

يرحل لوسيان إلى باريس وهناك يلتقى بآنا، وهى بدورها مناضلة تنتمى إلى إحدى النقابات، يعيش معها تحت سقف واحد، وينضم إلى النقابة نفسها ثم يرسل فى طلب أخته أن تلحق به فى عاصمة النور الكبرى.

وتجد أليز نفسها فى مدينة تستهلك الكثير من النقود، فعليها أن تعمل كي يمكنها أن تظل بباريس، وفى نفس المجتمع الذى تعمل فيه مع أخيها تقابل «أرزقى»، وهو عامل جزائرى فى الثلاثين من العمر،

ومن خلال تعاطفها مع قضية بلاده وسلوكه يرتبطان ارتباطاً عاطفياً قوياً، لكن الزمن دائماً قاس عليهما، فحين تندلع ثورة العمال عام ١٩٥٨ يقتل لوسيان في حادث ويختفى أرزقى هرباً من أعين الشرطة التي تبحث عنه.

تتحدث «أليز» عن أرزقى قائلة: «كان له وجه جميل صلد يبدو لا يعرف الخجل، لكنه يبدو أقل شباباً من الآخرين». لقد دعاها إلى احتساء فنجان من القهوة بمناسبة عيد ميلاده الحادى والثلاثين. ترى أنه يحمل فى صفاته الإنسان الكامل الحنون. فهى تتعلم منه كلمات كثيرة من اللغة العربية حول ماذا يعنى الواجب، وماذا تعنى كلمة «أحبك»، وهو يتعلم منها الحب والحنان. إنها تحاول من خلاله أن تفهم زميلاتها مشكلة الجزائر التى تود الاستقلال عن فرنسا لكى تصبح دولة لها سيادتها واستقلالها بعد مائة وثلاثين عاماً من الاحتلال.

يقول لها أرزقى: إن الفرنسى يحب الجزائر كما يحب الإنسان الجواد الذى يمتطيه. النضال هو أن ينتمى المرء إلى بلد مطحون. ترد عليه لو لم أعمل مع العرب أو الزنوج، وإذا لم أقف بجانبهم فماذا أفعل؟. تحدثت إحدى صديقاتها قائلة: «إنه شاب جزائرى، يكفى إلقاء نظرة إليه كى تفهم كل شىء» إنه وتحدثت أليزا عن الحرب الجزائرية ضد فرنسا مرودة» وهل تريدون أن تفتشون بعذاب الجزائريين، يجب أن نحدثهم عما يبتهم، لقد سقط شاب جزائرى».

تجد أليز نفسها قد خسرت أقرب الناس إليها ، مات أخوها واختفى حبيبها الجزائري ، فتقرر أن تعود إلى بوردو لتعيش مع جدتها بعد أن عرفت أن الفقراء أمثالها لن يعيشوا «الحياة الحقيقية قط» . لقد استغرقت الحياة الحقيقية بالنسبة لها تسعة أشهر فقط أحببت خلالها الشاب أرزقى «لكن الأمل يرقد دائماً تحت الرماد» .

وأليز - كما ذكرنا - هي إحدى الشخصيات الرائعة التي ابتدعتها كلير اشتريللي. وهي الشخصية الرئيسية في الرواية التي تقص حكايتها. فقد ربتهما جدتها وأخوها في مجتمع فقير معزول «إنهم أفقر الفقراء». تركت المدرسة في سن التاسعة عشرة وبدأت تعمل ، «لم أطلب يوماً إجازة أو أتطلع إلى الأعلى، في سن العشرين كنت أبدو أصغر سناً. كنت متكبرة بثقلى ، وأرتدى الملابس غير الملونة وأبدو راضية لأننى لست كالأخريات» .

وتنهك أليز في قراءة الصحف التي يتركها أخوها كي تعرف منها قضايا العالم الذى يحوطها ، فهي تعاني كثيراً من العذل فى المصنع لكنها مضطرة كي تعيش الصباح ودائماً يجلب الضجة ويسبب الألم ، كنت أشعر بالعنف يفسد رأسى» . وأليز فى نظر أصحاب المصنع ليست سوى امرأة تمتلك ساقين قويين عليها أن تقف جامدة بهما طيلة النهار أمام صفوف هياكل السيارات الجديدة. ولذا فهي تحس أنها لا تختلف كثيراً عن أى قطعة صلب فى داخل المصنع ، لذا فإن علاقتها بأرزقى

لا تحدهما حدود، فهو يفتح لها آفاقاً مجهولة يبدو شغوفاً بحياتي البسيطة وبمشاعري الفاضلة وبآفاقي المحدودة وبأحاسيسي الحية. هذه الأشياء فجرت حرارة هذا الحب الكامن». ومن هنا يبدو مدى التناقض بين مجتمع صناعي لا يعرف إلا لغة المال، ومجتمع بكر يعرف كيف يفهم أبناؤه لغة الحب والحنان. «علمت ماذا تعنى كل هذا المشاعر وأن يبقى القلب مذموماً وهو الذي كان يضحك من قبل. كان جسدي كله يتالم». وبعد أن يختفى أرزقي فإن أليز تود العودة إلى منزل جدتها الفقيرة مرة أخرى وتردد: «أرفض أن أتخيل ما ينتظرنى، يجب أن أبدأ فى البحث عن عمل. فسوف أختار بلا شك وسيلة أرزقي فى عالم لا توجد فيه علاقات إنسانية. لقد دامت الحياة الحقيقية، انسحبت بعدها داخل نفسى لكننى لم أمت بعد».

وقد كان الأخ لوسيان هو الرجل الأول فى حياتها، قد شكل عالمها الأكثر التزاماً. فقد علمها أشياء كثيرة منذ أن وعت قيمة الحياة وهى طفلة. لقد علمها كل القيم وناضل من أجلها، ترك التعليم كى يتولى شئون الأسرة. فى سن الرابعة عشرة كان للوسيان عاطفتان: حبه لهنرى وهو شعور نبيل منزه، ثم القزنج فوق الجليد. إنه يميل إلى أن يعمل فى مصنعه أكثر ويفخر بعضويته لنقابة العمال. ذات مساء قتلته سيارة فى الليلة التى حرب فيها كى يشترك فى مظاهرة لا جدوى منها.

وقد حصلت «كلير تشرللى» على جائزة «فيمينا» الأدبية عن هذه

الرواية. وهذه الجائزة تمنح لأفضل الأعمال الأدبية التي تتولى الدفاع عن حق المرأة، وعن وضعيتها، وهي تمنح للرجال والنساء على السواء، لكن بشرط أن تتناول الفكرة الإبداعية لدى المرأة وتدافع عن قضاياها المختلفة مثل حقها في الحياة مستقلة، وألا تكون مطمعاً لرجل يتعامل معها كئسىء. ومن أبرز الذين نالوا هذه الجائزة: «سيلفى جرمان» عام ١٩٩١، كما نالتها الأدبية «كوليت»، و«فرانساوز مالىه جوريس»، أما رواية «أليز أو الحياة الحقيقية» فقد أعجب بها المخرج الفرنسى ميشيل دراش فقدمها فى السينما عام ١٩٧٢ فى فيلم من بطولة زوجته «مارى جوزيه بات» والممثل الجزائرى «محمد شويخ» الذى أصبح مخرجاً سينمائياً معروفاً فيما بعد.

بعد عدة سنوات نشرت كلير روايتها الثانية «فيما يخص كليمانص» عام ١٩٧٣، وفيها نرى أليز أخرى اسمها كليمانص، وهى امرأة رقيقة المشاعر تعيش حياة بسيطة، فهى عاملة بسيطة، تشعر أنها سجينه لأشياء كثيرة. الآلات فى المصنع التى لا تكف عن الضجيج، والرجل الذى يحاول أن يتحكم فيها وأن يقودها حسبما يشاء. وإذا كانت أليز قد أحببت شاباً جزائرياً ما يقرب من أربعين عاماً فإن «كليمانص» تحب رجلاً أسبانياً هاجر من بلاده بعد أن قام بالثورة ضد الجنرال فرانكو الذى حكم البلاد أربعين عاماً، وهى تتعلم منه التحرر، فتغدو امرأة ثورية تطبق أفكار حبيبها. وفى الوقت الذى ينسى فيه الرجل شيئاً

فشيئاً قضيته، تتحول هي إلى أكبر مدافعة عن الثورة الأسبانية. وهذا اللون من الأدب الذى يؤكد إيجابية المرأة وسلبية الرجل ليس من سمات أعمال كليير وحدها فقد عبرت عنه المخرجة كولين سيرو فى بعض السيناريوهات التى كتبتها وركزت عليها أديبات أخريات مثل شانقال شواف فى فرنسا، وجوريس كارول أوتس فى الولايات المتحدة.

أما آخر رواياتها فهى «شجرة مسافرة» صدرت عام ١٩٧٨ وفيها نرى امرأة ثالثة متحردة وذلك من خلال قصة عانستين تدعيان «آنا» و«ميللى». ولقد أنجبنا أطفالاً من رجلين أحباهما دون الزواج منهما، والمرأتان تبحثان بصفة دائمة عن وظائف. وتجد ميللى عملاً فى أقبية المدينة حيث تكتب على آلة طباعة. هذا العمل فى رأيها لا قيمة له ويسبب لها الكثير من المتاعب، لكنها مضطرة إلى قبوله لأن أبناءها مرضى يعيشون فى غرفتهم المظلمة ويمنتظرون أن تأتى لهم بالأدوية والأطعمة.

أما «آنا» فهى أكثر مرونة وواقعية وصلابة، فتقوم برسم الكثير من اللوحات حول الفقراء الذين يعيشون فى أحياء باريس الفقيرة، فتؤجر منزلاً فى إحدى القرى القريبة من العاصمة. لها ثلاثة أبناء أنجبتهم من رجل أحبته وعليها رعايتهم بعد أن تخلى الرجل عن مسئوليته إزاءهم.

وفى القرية تلتقى ميللى بالتر الفنان الذى يحول المباني القديمة إلى مباني فخمة، وهو يعيش حياته بمنطق «نحن فى عصر يجب أن

نصبح فيه أثرياء»، فهناك «مائة وعشرون ألف عامل من حولنا ويجب ألا نكون مثلهم».

و«ميللى» ترقب ما يحدث فى مايو ١٩٦٨ إبان أحداث الطلبة وتود أن تكترك فيها. أما والتر فهو لا يفهم دوافعها جيداً. وتعتبر ميللى نفسها شجرة مسافرة تظل بظلها إثناءها، وتغوص بجذورها فى «حياة ماضية داخل الأقبية» دون أن تتنسم الهواء النقى الذى يجلب الكلمة والحركة للآخرين.

إنها ترى أن كل شىء لا يسير على ما يرام طالما أن هناك بطالة واجازات مرضية. فقد اضطرتها الظروف الصعبة أن ترسل أبناءها كي يتوسلوا إلى البقالين ليأتوا لأنفسهم بشىء يأكلونه، وهى لا ترتبط بعد والتر بأى رجل. فقد أصبح الأبناء هم كل عالمهم. لكن والتر أبدى قلقه من أطفال ميللى الثلاثة، لأنه ليس مستعداً لإعالتهم، ولذا تقرر أن تخرج من إطار هذا الرجل بل كل الرجال وتبحث بنفسها عن مسار حياتها. بعد أن تصاب بصدمة لأحداث مايو ١٩٦٨ تلاحقها خيبة أمل جديدة فى أغسطس من العام نفسه عندما تحدث مأساة براغ، حين تقطعت القوات السوفيتية العاصمة التشيكوسلوفاكية وتحطم ربيعاً نبض فى قلوب الشباب. حيث انتقلت ثورة الشباب الفرنسى إلى أكثر من مكان فى العالم ووجدت طريقها إلى قلب الشباب فى وسط أوروبا. لكن الجيش السوفيتى حطم أملاً، وشعرت ميللى أن قلبها يتحطم لكنها دائماً

تعيش بأمل. وكثير تشرللى تنهى رواياتها دائماً بالأمل والحيوية تملأ بطلاتها. فتقابل ميللى رجلاً يدعى «فانش»، سبق لها أن أحبته منذ سنوات وتحفظ له بأحلى الذكريات. لقد تغير الرجل ونبذ عالم الخمر وتحول من إنسان ضائع إلى شخص أكثر رقة، وارتبط بامرأة غيرتها ظروف بلادها وظروف العالم من حولها.

وعن أسلوب كليير اتشرللى يقول هنرى جولين فى مجلة «لونوفيل أوبزفاتور» فى ٣ يوليو ١٩٧٨ إن أدواتها الفنية ثابتة لكن أسلوبها أثيرى، يخلب لب القارئ ويجذبه إلى عالمها، فهو منىء بالدفء الإنشائى والعمل البشرى. وبطلات كليير، كما عرفنا، نوات شعور عام؛ إن لا يعرفن ولا يمكنهن أن يفصلن مشاكلهن الخاصة عن مشاكل المجتمع الكبرى.

وشخصيات كليير أقرب فى صفاتهن إليها، فهى تميل إلى الثورة والتسرد، وهى ترى أن على المرء أن يرتبط بكل ما يحدث فى العالم وألا يكتفى الإنسان بالنظر فقط داخل نفسه، وإنما عليه أن يخرج هذه النفس أمام المعاناة التى يحسها البشر فى كل أنحاء العالم.

## يوكو. وأخواتها



هل

يجب أن يحصل كاتب ما من دولة  
بعينها على جائزة أدبية عالمية  
كبيرة كي يعترف العالم كله بأن هذا البلد  
لديه إبداع متميز؟!!

إجابة هذا السؤال تتمثل في الاهتمام  
بالأدب الياباني الحديث عقب فوز الروائي  
«أوي كينزا يورو» بجائزة نوبل في عام

١٩٩٤. وكان أدباء اليابان كانوا في القبور فاستوجب عليهم الخروج إلى  
دائرة الضوء لبعض الوقت؛ حتى يفوز بالجائزة كاتب آخر كي يخرج  
أدباء آخرون من بلد آخر من دائرة الظلام إلى النور لبعض الوقت.

كشف هذا الأمر بالنسبة لليابان أن هناك مبدعات لا تقل أهميتهن  
عن الرجال الذين تمت ترجمة أعمالهم تبعاً إلى لغات عالمية عديدة،  
منها اللغة العربية. والغريب أنه حتى وقت قريب كانت الإبداعات  
المترجمة من اليابانية تشير إلى أن أدب بلاد الشمس المشرقة ينتمي في  
المقام الأول إلى الرجل، وأنه لا توجد امرأة واحدة في خريطة الأدب  
الياباني الحديث، وخلت قوائم الأسماء المنشورة من أي امرأة.

ولذا فإن فوز «أوى» بجائزة نوبل كان بمثابة مناسبة سعيدة للكاتبات اليابانيات. فلأول مرة يدرج اسم كاتبة من طراز يوكو متوشيمما إلى قوائم الأدب اليابانى المترجم إلى لغات أجنبية خاصة الفرنسية، وراح النقاد يضعونها فى المقارنة مع «أوى» نفسه باعتبار أن إبداع كل منهما بمثابة إرهاب لتجارب شخصية أليمة عاشها الكاتب فى الواقع.

ويهمنا فى حديثنا عن هذه الكاتبة، أن نتعرف أيضًا إلى بنات جيلها الكاتبات، فليست «يوكومتوشيمما» حالة فريدة فى الإبداع اليابانى، بل هى واحدة من جيل مبدع من النساء. من هذا الجيل على سبيل المثال «ميساكو ماسودة» التى قوبلت روايتها «الخلية الأولى» بارتياح والتى تروى قصة حب بريئة بين فتاة وشاب، كل منهما بمثابة خلية أولية حياتية. أما الكاتبة «اب ناهيكارى» فقد لفتت الأنظار إليها فى عام ١٩٨٤ بروايتها «السباق البطيء لنساء طوكيو».

أما الروائية «ايمى يامادة» فتحكى فى روايتها «عيون الفراش» عن تجربتها العاطفية الحقيقية مع جندى زنجى أمريكى، وترى أن هذه التجربة بمثابة حالة هروبية من الواقع إلى المتعة.

وفى اليابان أيضًا روائية بارزة هى «سواكو ايروشى» وهى كاتبة تخصصت فى الكتابة عن التلوث، وقد قوبلت روايتها «كاي أو المنافستان» باستحسان عند نشرها عام ١٩٨١، ثم عندما ترجمت

إلى الفرنسية عام ١٩٨٦. وهى تدور حول امرأة تدعى «كاي» تعودت على التضحية من أجل رجلها، وتدور الأحداث فى بداية القرن التاسع عشر، حيث يعيش الجراح «هانوكا»، وهو أول من أجرى الجراحات الناجحة فى اليابان. ولم يكن لمثل هذا الرجل أن يحقق هذا الإنجاز دون مساعدة زوجته وأمه. وقد تعرضت الزوجة لصدمة فقدت على إثرها البصر، لكنها لم تتوقف عن دورها.

وتقول الكاتبة فى مجلة «مارى كلير»: «عشت نفس التجربة عندما تزوجت، وتعيشها نساء أخريات متزوجات فى المدينة بعيداً عن الأهل فى الأقاليم. لكن عندما تأتى الحماة للزيارة لمدة يومين أو ثلاثة، فإن على المرأة أن تبدو مطيعة مثلما تفعل «كاي» مهما كانت معاناتها. صحيح أن اليابان تتطور بسرعة، ولكن التقاليد القديمة تبقى ثابتة لا تتحرك».

وكما نلاحظ فإن الكاتبة اليابانية أسوة بزميلها الرجل، تهتم بالعلاقات الإنسانية العادية، خاصة قصص الحب، وتبلورها كما تشاء من خلال أحاسيسها وتجربتها الذاتية. وإذا كان هناك تقارب بين هؤلاء الكاتبات، وبين نفس العالم الذى رأيناه فى روايات «ياسونارى كاوباتا» (نوبل ١٩٦٨) فإن هناك تقارباً آخر بين عالم «أوى كينز ابورو» وبين روايات «يوكومتسو شيما». فالكاتبة التى حصل على جائزة نوبل عام ١٩٩٤ كرس أغلب رواياتها للحديث عن ابنه المعوق الذى ولد عام ١٩٦٤ مريضاً بالمانوليا، لكن روايات «يوكو» تدور حول مأساة موت

الأب الذى رحل عن عالمنا عام ١٩٤٨. أى بعد سنة واحدة من ميلاد ابنته، وقد كان فى وفاة الأب «أوسامو دازاى» صدمة لدى الابنة عندما وعت ماذا يعنى الموت المأسوى؛ إذ انتحر الرجل فى ظروف بالغة الألم تاركاً أسرة صغيرة. وفيما بعد تعددت المآسى واشتدت جسامه عندما مات الابن الوحيد للمؤلفة فى عام ١٩٨٥.

وقد سكبت المؤلفة هذه التجارب فى أربع روايات ترجمت إلى الفرنسية، وهى «مطاردة فى ضياء الليل» و«أرض من النور» عام ١٩٨٥ و«طفل الثروة» عام ١٩٨٦ ثم «المرأة التى تجرى فى الجبل» عام ١٩٩٣. إذن نحن أمام نوع من الكتاب عبر إبداعهم عن تجاربهم الحياتية خاصة أن ما عاناه كل منهم مع فرد عزيز من أبناء أسرته. فقد ولد الموت المأساوى فى حياة «يوكو» وهى لم تتعد العام الأول من عمرها بعد أن انتحر أبوها «أوسامو دازاى»، ثم جاءت المأساة ثانية وهى شابة يافعة فى الثامنة والثلاثين من عمرها. كما سبق أن مات أخوها فى حادث عام ١٩٦١. ولذا فإن المأساة هنا تتضاعف. ولا شك فى المقارنة بين حياة كل من «يوكو» وحياة «كينز بورو» استوجب المقارنة. لقد ظلت مأساة الحائز على جائزة نوبل ماثلة أمامه كلما كبر ابنه المعوق أمام عينيه. على رغم أن الصغير قد كبر الآن، وأصبح عازفاً ماهراً. أما مأساة «يوكو» فقد بدت فى الذاكرة، تخاف أن تسترجعها، ولكنها عندما تستجمع شجاعته فإنها تسجلها فى رواياتها.

ولذا، أجمع النقاد على أن كتابات «يوكو متوشيمما» باللغة الخصوصية. وتبدو متميزة قياساً إلى التجارب الأدبية المعاصرة. إنها تهوى التحليل النفسى لأبطالها وانفعالاتهم ودوافعهم السلوكية. فإذا كان «أوى» قد وقف فى روايته ضد قوى عالمية أكبر، أدت إلى اندلاع الحروب العالمية وانتهت بإلقاء القنابل الذرية فوق المدن اليابانية، وتشويه الملايين من أبناء الأجيال المتعاقبة، فإن «يوكو» تقف فى مواجهة العنف الاجتماعى الداخلى الذى بدأ يظهر فى اليابان عقب نهاية الحرب. بدا هنا العنف بمثابة قدر أسود أشد مأساوية من الحروب، باعتبار أن أبناء الوطن الوحيد يتقاتلون فيما بينهم بشكل متقطع ودموى فينشطر الجسم اليابانى الواحد إلى شظايا.

فى روايتها «مطاردة فى ضياء الليل»، تتابع الظروف التى أدت إلى وفاة ابنها وهو فى الثامنة من العمر، وتقول إن الحدث قد أفقدها كل قدرة على التخيل، ولذا جاءت الرواية بمثابة رسالة مفتوحة موجهة إلى أديب عاش فى القرن الحادى عشر، وذلك من أجل تعميق وجود الطفل فى حياة داخلية. والرواية بمثابة حوار داخلى تتحدث فيه الراوية إلى نفسها عبر الأزمنة التى عاشتها بلادها طوال قرون، سواء الأزمنة التى تتجاهلها أم تلك التى تؤمن بأنها تمثل مجد اليابان.

ومن الواضح أن التجربة الخاصة بابنها لم تكن قد حدثت عندما نشرت رواية «المرأة التى تجرى فى الجبل»، فقد نشرت لأول مرة فى

اليابان عام ١٩٨٠ وهى عن امرأة شابة تعمل خادمة فى أسرة تافهة، ولذا فإنها تتصرف كسجينه أكثر من كونها خادمة. ولأنها تكره أباهها الدمز للكحول، فقد رمت نفسها فى أحضان رجل عابر ما لبث أن هجرها وفى بطنها جنين. ودثل هذه التجربة تستوجب الحديث بخصوصية المشاعر الداخلية، فكم من امرأة فى الكون حملت سفاحاً من رجل عابر، لكن بطله هذه الرواية ستراجع آلامها ومشاعرها، وتحلل دوافعها بشكل يجعل التجربة جديدة فى صياغتها وشكلها. إنها امرأة أخرى محبوبه، لكن ليس بين أسرة تعمل لديها، لكن داخل الكلمات التى تنطقها والمفاهيم التى تعيش عليها.

ونجد المرأة، واسمها «تاكيكو» نفسها فى خيار صعب، فهل تحتفظ بالطفل أو تبقى على أحلامها فى أن تعيش حرة، تسوقها أقدامها إلى تاجر يبيع النباتات. إنه زميل قديم لها يسمى «كبياشى»، يحرقها بأسلوبه وشخصيته ولكنها لا تحبه. فهى ترى أن الحب أمر مستحيل، بل إنها لا تعرف هذه المشاعر الفياضة قط فى حياتها. لكن كل ما تبحث عنه هو مرآة ومكياج، وتعرف أن للرجل أخاً سبق أن مات. إنه نفس شقيق الكاتبة الذى مات فى حادث عام ١٩٦١، وأن القدر قد جمعهما معاً باعتبار أن كلا منهما مصاب فى عزيز لديه.

يقرر الاثنان السفر إلى الجبل الذى يقع خارج العاصمة، فيقترب كل منهما من الآخر أكثر. وتحاول «تاكيكو» أن تعرف الحب الحسى مع

الرجل، لكنه يبدو غير مستعد لذلك. فهو يود رؤية الأشياء بمنظور معنوي، ويصبح الجبل رمزًا لوطن ناصع البياض، وهناك في الشمال يذهب الاثنان إلى حيث تسكن أم المرأة. إنها منطقة بللورية تجد توفقًا في داخل المرأة وتبدو كأنها تحج إليها لتغسل كل ما أصابها من متاعب.

وبالنظر إلى هذه الروايات، فإن هناك تشابهًا واضحًا بين العالم الداخلي للكاتب، ونفس العالم الذي عاشه العجوز في رواية «بلاد الجليد» للكاتب «ياسوناي كاوباتا»، بل العديد من شخصيات هذا الكاتب، حيث يرمز الجليد إلى العربة، التي يحلم بها هؤلاء الأبطال، لذا فإن رحيل «تاكيكو» من المدينة التي اغتصبتها إلى الجبل الذي يعلوه الجليد، بمثابة حالة حقيقية من الخلاص وبلوغ مرحلة سامية. وكان «تاكيكو» تعيش حياة خاصة بها، سبق للملايين اليابانيين أن عاشوا مثلها طوال التاريخ منذ أن فعل الأمير «بوذا» قبل عشرات القرون.